أن تروقه في الزير وتقطره في هذه الآنية تضعها تحت الأزيار وتضع فوقها المصفاة؛ كان يرى ذلك فيغتاظ ويهتاج، ويلتفت إلى أخيه وإلى أبناء أخيه وهو يصيح في صوته المرتفع المضحك: آه يا أولاد الكلب، من أين جاءكم هذا العز؟ إنكم لتحرمون أنفسكم خيرًا كثيرًا، إنكم حين تشربون هذا الماء المُصَفَّى أشبه الناس بالذين يشربون اللبن بعد أن أُستخرج منه الزبد، ثم أسرع إلى الكوز فيغمسه في الزير ويعب فيه عبًّا شديدًا، ويقول: هكذا رأينا آباءنا يشربون؛ لأنهم لم يكونوا من التُّرك ولا من الأرنئوط.

ولم يكن هذا كل الاختلاف بين الأخوين الصديقين، وإنما كان بينهما اختلاف آخر أبعد من هذا في حياتهما وصلاتهما أثرًا، فقد كان خالد يحرص على أن يُعَلِّم بنيه كما يُعَلِّم كبار الموظفين أبناءهم، لا يكتفي بأن يحفظوا القرآن ويحسنوا شيئًا من الكتابة والحساب، وإنما يحرص على أن يرسلهم إلى المدارس ليلووا ألسنتهم بهذه الرطانة الأجنبية، وليلبسوا هذه الأزياء الأجنبية، ولتطلق المدارس عليهم هذه الأسماء التركية: فهمي، وشوقي، وصبحي، وليصبحوا إذا شبُّوا موظفين كبارًا، وأما سليم فكان يضيق بذلك أشد الضيق، ويرى أن أباه لم يُرسله إلى المدرسة، وأن جده لم يُرسل أباه إلى المدرسة، وأنَّه قد فَرَّ ببنيه من المدرسة فرارًا، ويرى أن هذه المدارس لم تُنشأ للفلاحين، وإنما أُنشئت لأبناء الذوات، وأن أبناء الفلاحين إذا ذهبوا إليها فسدت أخلاقهم وتقطعت الصلات بينهم وبين آبائهم وأمهاتهم، وطمعوا فيما لا يقدرون عليه، وانتهوا إلى فساد لا فساد بعده، وكان يقول لخالد: ألا تنظر لبنيك في هذه الأزياء الضيقة التي لم تُخلق لهم، فهم إذا اتخذوها أشبه شيء بالعفاريت! ألا تسمع لهم حين يتراطنون فيما بينهم بما لا تفهم! ما يُدريك! يشتمونك وأنت لا تعي. وكان هو قد أرسل ابنه سَالمًا إلى حذَّاء يتعلم عنده صناعة الأحذية، وأرسل ابنه عليًّا إلى خيَّاط يتعلم عنده صناعة الأزياء الأوربية، وكان يقول متضاحكًا: قد كبرت يا خالد وكبر أبناؤك، وأصبحتم لنا سادة وأصبحنا لكم خَدَمًا، سيصنع أبنائي لأبنائك ما يحتاجون إليه من الأحذية والثياب، ولكن احذر أن يدفعك ذلك إلى البطر، وأن تبخل بجلنار على سالم؛ لأنه حذاء، وأن تبخل بأولى بناتك من «مُنى» على عليٍّ؛ لأنه خياط، ثم يغرق في الضحك وتغرق الأسرة في الضحك معه أيضًا.

وكذلك رثَّت الأسباب قليلًا قليلًا بين الأسرة وبين المدينة الأولى، حتَّى أصبح التزاور بين أفراد الأسرة في المدينتين طُرفةً من الطرف، تشتد فيها الرغبة أحيانًا، وتقصر الآمال عن تحقيقها، وكذلك استقلت أسرة خالد قليلًا قليلًا، حتى أصبحت وكأن لم يكن بينها وبين أصولها في المدينة الأولى عهد، وحتى شُغلت بأمورها وخطوبها عن أمور الآخرين وما يعرض لهم من خطوب.